- ٦ -

قراءة في التجربة الوحدوية المرابطية للغرب الإسلامي

ا - إشكالية التجربة الوحدوية المرابطية في الدراسات الحديثة:

لم تتعرض أية دولة من دول مغرب «العصر الوسيط» لعسف وتحامل الدراسات الأوروبية، مثلما تعرضت له دولة المرابطين؛ بل جرى طمس وإغماط حق هذه الأخيرة في كثير من المنجزات، بما في ذلك تجربتها الوحدوية «الأم» على صعيد المغرب العربي. وحسبنا أن معظم هذه الدراسات كُرست إما لابراز «لاحضارية» أهـل اللثام الـذين وصفوا بـ «ريـح الصحراء حـين تهب على الغيـاض النضرة»[١] أو لإعطاء الحجة على مسؤوليتهم في سحق الثقافة العربية، ومطاردة العلوم العقلية[٢]! في الوقت الذي ذهبت بعض الأحكام إلى حد نعتهم «بالدخلاء»[٣] أو الممثلين للإسلام «البربري» الذي جاء ليصد خطر إسبانيا المسيحية[٤]، وايقـاف الغزو الهـلالي[٥]، في حين شـوهت بعض المزاعم حركتهم، فجعلتها معلمة تُمثل ذروة الصراع بين صنهاجة الضاربة في سهوب الصحراء ومصمودة الجبلية[٦].

وقد حتمت مثل هذه التخريجات ـ وغيرها ـ على الدارسين العرب الدخول في حلبة مقارعة تلك الأحكام الخاطئة ودحضها، ومن ثم انصب الاهتمام على إظهار الحركة المرابطية بمظهر الحـركة الإصلاحية الدينية التي جاءت لتطهير المجتمع المغربي، وإنقاذه مما كان يسبح فيه من قتامة الظلم والجهل والاضطراب السياسي والاقتصادي والاجتماعي[٧]. والحاصل أن أهم مشروع تبنته الحركة

(١) اشباخ: **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**. الترجمة العربية. القاهرة، ١٩٥٨، ص ٤٩٣.

(٢) DOZY: *Rechèrches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le m ɔyen âge.* ed. 1881, p.348.

(٣) TERRASSE: *Histoire du Maroc.* T.1. op.cit., p.240.

(٤) الفرد بل: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**. الترجمة العربية. بيروت، ١٩٨١، ص ٢٢٧

(٥) BAYSSIERE: *Histoire du Maroc,* Paris, Hatier, 1929, p.32.

(٦) MONTAGNE: *Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc.* Paris, (L.F.A),1930, p.29.

(٧) انظر على سبيل المثال: حسن أحمد محمود: **قيام دولة المرابطين**. طبعة القاهرة، ١٩٥٧، ص ١١٧ ـ ١٢١ - =

المرابطية، وهو مشروع توحيد المغرب الإسلامي، كاد أن يُهمل بالمرة، مع أنه شكّل حجر الزاوية في برنامجها السياسي.

صحيح أن بعض الدارسين الغربيين أشاروا في سياق كتاباتهم إلى هذه الإشكالية، إلا أنها كانت في الغالب الأعم ـ إشارات خجولة، فضلاً عن أن التفاسير المقتضبة التي استعملت لتحليل هذه الظاهرة التاريخية حادت عن الصواب؛ مصداق ذلك تفسير أشباخ لسيادة المرابطين على المغرب العربي بأنه نابع من موقف «قومي» تبناه البربر، رغبة في الانعتاق من السيطرة العربية [١]. والشيء نفسه يقال عن تعليل فيكتور P. Victor[٢] لهذا الحدث الوحدوي، إذ رأى فيه ضغطاً إيديولوجياً استعمل كحجة وتبرير لفرض هذه السيادة، ولم يبتعد مونتاني R. Montagne[٣]. قيد أنملة عن هذه الافتراءات حين زعم بأن الفوضى والانقسامات التي سادت تاريخ المغرب الإسلامي جعلت الدويلات البربرية أو العربية التي حكمت المغرب، مضطرة إلى حكم بلاد متمردة على الوحدة، وإن كان يعترف في مكان آخر بأن المغرب الأقصى ـ على الأقل ـ تمكن في ظل الأمراء الأقوياء من تحقيق شكل من أشكال الدولة.[٤] ويجاريه في هذا الرأي جوليان[٥] الذي نفى أن يكون المرابطون قد شكلوا حكومة سياسية بمعنى الكلمة، وبالتالي دولة مركزية، مع العلم أن الدولة تمثل إحدى الأدوات الرئيسية لتحقيق الوحدة.

وإذا كانت معظم الدراسات العربية قد أجمعت على أن المرابطين حققوا وحدة المغرب الأقصى وجزء كبير من المغرب الأوسط، فإن الحاجة لازالت ماسة إلى دراسة هذا المشروع الوحدوي، لا كمشروع سياسي معزول عن الظاهرات التي أفرزته، بل كبنية متكاملة مؤطرة في سياق منظومة شاملة لها قوانينها وآلياتها، ومن ثم ضرورة البحث عن هذه الآليات، عن طريق تفكيك تلك المنظومة، وإعادة ترتيبها بما يتسق مع قوانين تطور تاريخ المغرب، وذلك عن طريق إبداء ملاحظات، وطرح تساؤلات تهدف إلى تأصيل المشكل أكثر مما تسعى إلى الإجابة النهائية.

لا يمكن إنكار ما يُلاقي الباحث من صعوبات وهو يتصدى لدراسة الموضوع، لأن التجارب الوحدوية الوسيطية لم تُطرح كإشكالية علمية مستقلة بعد[٦]، فضلاً عن أن محاولة معرفة كنهها ومنطلقاتها الداخلية، وأهدافها ومخلفاتها، تتداخل مع بعضها البعض، إلى درجة تجعل مهمة

عبد الله عنان: **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**. القسم الأول: عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية. القاهرة، ١٩٦٤، ص ٤٢٤ وما بعدها ـ عبد الله كنون: **النبوغ المغربي**، بيروت، ١٩٧٥، (ط ٣)، ج ، ص ٦٣، ٧٣ وما بعدها. وكذلك انظر: عصمت دندش: «الثقافة العربية الإسلامية في غرب افريقيا: السودان على عهد المرابطين»، مجلة **دعوة الحق**، العدد ٢٥٨، غشت/ آب ١٩٨٦ ص ٧١

(١) **تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين**. م.س.، ص ٤٧٦.

(٢) *Les civilisations de l'Afrique du Nord,* p.132.

(٣) op, cit., p.3.

(٤) Ibid., p.34.

(٥) **تاريخ افريقيا الشمالية**. تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، ١٩٧٨، ج ٢، ص ١٢١

(٦) محمد القبلي: **مراجعات حول الثقافة بالمغرب في العصر الوسيط**. الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص ٧.

الدارس شاقة ومضنية(١). وحتى المصادر، لم تعرض لهذا الجانب إلا في مظهره الفوقي حيث غلّفته بغطاء عسكري، متجاهلة بناه الداخلية، علاوة على أن أغلبها ركز على الدور الأندلسي، متجاوزاً الدور المغاربي، لحدٍ يبدو أنها أندلسية أكثر منها مغربية(٢)، ناهيك عن ضياع معظمها، وعلى الخصوص كتاب ابن الصيرفي **الأنوار الجلية في اخبار الدولة المرابطية** الذي يصفه صاحب **مفاخر البربر** بأنه «ممتع مفيد»(٣)

والأمل يبرق فيما يمكن أن توفره المصادر الدفينة من إشارات هامة، فضلاً عن الأركيولوجيا التي بإمكانها أن تمدنا بمعلومات عميقة تثري معرفتنا بتاريخ المرابطين(٤)، وبالتالي مشروعهم الوحدوي.

غير أن شحة المصادر التاريخية، إلى جانب العوائق الأخرى، لا تحول دون طرق الموضوع من جوانبه الهامة، ونتفق في هذا الصدد مع ما أشار إليه باحث نبيه(٥) من أن معالجة مثل هذه الجوانب تؤدي إلى إثارة الفضول وتعميق المشاكل وملء الثغرات.

II - المشروع الوحدوي على الصعيدين الرسمي والشعبي:

إن أول ما يمكن أن يلاحظه الباحث هو أن المشروع الوحدوي كان حاضراً على المستوى الرسمي والشعبي على السواء.

فعلى الصعيد الرسمي جعلت الدولة المرابطية مشروع الوحدة على رأس برنامجها السياسي، ووظّفت كل الوسائل الممكنة لتحقيق المغرب الكبير، بل دافعت عن هذه الوحدة عندما تصدت للخطر النصراني المنبعث من صقلية. وحسبنا أن علي بن يحيى أمير المهدية استعمل ورقة التحالف مع الملثمين سلاحاً لتهديد روجار أمير صقلية(٦)،كما أن الخطر الموحدي الذي دهم المغرب وجد في الحماديين طرفاً ثانياً لمساعدة المرابطين إبان محنتهم(٧). ولعل مصرع تاشفين بن علي في مدينة وهران(٨) في خضم التعاطف الحمادي، يعكس عمق الروابط الوحدوية على الصعيد الرسمي، على الرغم من هشاشة هذا التعاون الذي تعرض أحياناً لهزات عنيفة نتيجة تناقض المصالح.

أما على الصعيد الشعبي، فإن هاجس الوحدة كان حاضراً، شعوراً وممارسة. فعلى الرغم من

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨.

(٢) LAROUI: *Histoire du Maghreb. Un Essai de synthèse.* Tome.1. Paris, 1975, p.144.

(٣) مجهول: **مفاخر البربر**، م.س.، ص ٥٩.

(٤) LAROUI, op.cit., p.145.

(٥) القبلي: م.س.، ص ٨.

(٦) ابن عذاري: **البيان المغرب**. م.س.، ص ٣٠ وروجار الثاني Roger II ملك النورمان، اعتلى عرش صقلية ما بين سنتي ١١٣٠ و ١١٥٤ م (٥٢٥ ـ ٥٤٩ هـ) على انقاض الحكم الإسلامي في تلك المنطقة. يسميه بعض المؤرخين رجار وبعضهم الآخر اجار. وقد عرف بتسامحه مع المسلمين الذين آثروا البقاء في صقلية بعيد سقوطها بيد النورمان.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٠

(٨) ابن أبي زرع: **روض القرطاس**: م.س.، ص ١٦٦

العداء السياسي الذي كان يظهر من حين لآخر بين أقطار المغرب الإسلامي، فإن الزخم الشعبي كان يتجاوز الإطارات الضيقة، والانعزال السياسي. ولم يكن هذا الشعور الشعبي ناتجاً عن ميل فطري نحو التوحد فحسب على حد تعبير أحد الباحثين(١)، بل كان متجذراً في فكر الفئات الشعبية، خاصة العلماء. فالمؤرخون والجغرافيون المعاصرون لتلك الفترة، وحتى الذين جاؤوا من بعدهم، لم يعترفوا بالحدود الفاصلة بين دول المغرب. يقول أحدهم(٢): «فالمسلمون حينما كانوا إخوة لاسيما من بهذه الجزيرة ومن بتلك العدوة». ومصطلح «العدوة» لا يقتصر على المغرب الأقصى فحسب في ذهنية المؤرخين، بل كذلك المغربان الأوسط والأدنى(٣). ويعبِّر ابن خلدون(٤) عن المجال الجغرافي للمغرب بأنه «جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهات» وهو تعريف وحدوي كما يتضح.

أما الجغرافيون فظلوا ـ على غرار المؤرخين ـ ينظرون إلى الغرب الإسلامي كرقعة واحدة رغم اختلاف الأسماء. فالبكري يسميها «بإفريقية التي تمتد من برقة إلى طنجة الخضراء». وكان زيري ابن مناد من الفترة ذاتها يُسمّى بصاحب الغرب وما يليه. ورغم انتماء المراكشي إلى المغرب الأقصى، فإنه يجعل من طنجة في العصر الموحدي «مدينة من المدن المتصلة ببرّ القيروان» في أقصى المغرب. وتقوم شهادات أخرى على أن مفهوم الغرب الإسلامي (العربي) كان يشمل هذا المجال الواسع، وليس المجالات المتباينة. وبديهي أن يشمل هذا المجال عدة أقاليم، ولكن هذه الأقاليم ليست مستقلة عن بعضها البعض، وإنما تكوِّن مجالاً جغرافياً واحداً(٥)

وإذا انتقلنا إلى الطبقات الدنيا «غير المثقَّفة» نلاحظ أنها نظرت ـ على طريقتها الخاصة ـ إلى الحركة المرابطية نظرة الموحد المنقذ. وفي هذا الصدد ذكر أحد المؤرخين(٦) أن الأندلسيين «لما رأوا المرابطين وقد ملكوا مغرب العدوة، وطردوا عنه الزناتيين، فكأنهم تأنسوا بأبنائهم ورجوا الفرج من تلقائهم». وعبارة «تأنسوا بأبنائهم» تحمل دلالة كبيرة على كنه هذا المد الوحدوي. كما أن مؤتمر قرطبة الشعبي(٧) يعكس المنظور عينه، وهو مؤتمر تمخض عن القهر المارس على الرعية التي رأت أنه لا يمكن إنقاذ وضعيتها إلا بإسقاط حكامها «والاتحاد مع المغرب في ظل المرابطين»(٨)

ويُخيل إلينا أن القبائل المغربية نظرت إلى الحركة المرابطية وهي في بداية تكونها النظرة ذاتها. ولم تكن المعارضة التي واجهتها من قبل الفئات المستضعفة، بل انبعثت من صفوف الزعماء والنبلاء

---

(١) الجراري: **وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ**. الدار البيضاء، ١٩٧٦، ص ٣٦

(٢) مجهول: **الحلل الموشية**. م.س.، ص ٢٠٠

(٣) عندما ترجم ابن الأبار لعبد الله بن محمد بن يحيى بن فرح بن الزهيري العبدري (ت ٥٤ هـ) ذكر أنه نزل قلعة حماد من العدوة. انظر: **التكملة لكتاب الصلة**. مصر، ١٩٥٥، ج١، القسم ٢، ص ٨٢٦.

(٤) **كتاب العبر**، م.س.، ص ١

(٥) القبلي: م.س.، ص ٩ وهذا ما يؤكده تقسيم ابن خلدون للمغرب إلى أدنى وأوسط وأقصى، انظر المصدر السابق، ص ١٠١

(٦) ابن الكردبوس: **تاريخ الأندلس**. مدريد، ١٩٧١، ص ٨٥.

(٧) سعدون نصر الله: **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**. بيروت، ١٩٨٥، ص ٦٧.

(٨) المصدر نفسه، ص ١١٢.

الذين رأوا فيها خطراً يهدد مصـالحهم[(١)]. وتقوم شهـادة البكري دليـلاً قويـاً على صحـة هذا التخريج[(٢)].

ولا نعدم من القرائن الأخرى ما يزكي مقولة المدّ الوحدوي الشعبي، ويتجلى ذلك في تبادل الرحلات العلمية، ومنح الإجازات. وخير مثال نسوقه في هذا الصدد يتمثل في شخصية أبي عمران الفاسي الذي يمثل معلمة من معالم الوحدة المغاربية. فهو مغربي «أصله من فاس وإليه ينسب درب ابن أبي الحاج بطالعة القرويين»[(٣)]. ومع ذلك فقد فضّل الاستيطان في القيروان، وعنه «أخذ الناس في أقطار المغرب»[(٤)]، فكان بذلك شيخاً وأستاذاً لكل أبناء المغرب العربي. وكان لوجاج بن زلو الذي درس عليه ضلع كبير في تأسيس دولة المرابطين ـ نواة الوحدة المغربية[(٥)]. ويعتبر هذا الأخير كما هو معروف ـ أستاذاً لعبد الله بن ياسين، المنظِّر الأيديولوجي للحركة الوحدوية المرابطية.

وتساعدنا المصادر في سرد مثال يحمل مغزى عميقاً بصدد هذه المسألة، فقد قَدِم عالم تونسي من توزر هو أبو الفضل بن يوسف النحوي، واستقر في سجلماسة للتدريس بها غير أنـه تعرَّض للمضايقة والطرد من طرف فقهاء المرابطين، لأنه أقدم على تدريس مادة محظورة هي مادة الأصول. ومع ذلك لم يرجع إلى بلده، بل فضّل الإقامة في فاس والاستقرار في «مغربه الكبير»[(٦)].

ويترجم ابن القاضي[(٧)] لمحمد بن داود بن عطية (ت ٥٢٥ هـ) فيذكر أن أصله من إفريقية (تونس)، غير أن هـذا الأصل لم يحـل دون توليـه القضاء بتلمسـان، ثم اشبيلية وفـاس. وكان عبد العزيز التونسي مدرساً بأغمات «وانتفع الناس عليه»[(٨)].

ويذكر ابن الأبار أن عالماً جزائرياً يُعرف بيوسف الورجلاني (ولد سنة ٥٠٠ هـ) رحل إلى قرطبة بالأندلس، وكانت يومئذ ولاية مرابطية وهناك اشتهر بأدبه حتى لُقب بالجاحظ[(٩)].

والشيء نفسه، حدث للعلماء المغاربة ـ الأندلسيين، حيث شد بعضهم الرحال إلى قلعة بني حماد للتدريس فيها[(١٠)] كما هو الحال لدى عبد الله بن محمد يحيى بن فرج الزرهيوي الذي اختطفته المنية وهو في «وطنه الثاني» إذ توفي في بجاية[(١١)]. أما العلماء الأندلسيون الذين كانوا يرحلون إلى

---

(١) حسن محمود: م.س.، ص ٢١

(٢) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**. م.س.، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ حيث يقول متحدثاً عن ابن ياسين: «فقام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار والآخر اينتكرا فعزلوه من الرأي والمشورة وهدموا داره».

(٣) **جذوة الاقتباس**. الرباط، ١٩٧٣، ج١، ص ٣٤٦

(٤) ابن عجيبة: **ازهار البستان في طبقات الاعيان**. (مخطوط) ص ٢٦ ظ.

(٥) مجهول: **مفاخر البربر**، م.س.، ص ٦٩

(٦) القبلي: م.س.، ص ١٩ ـ ابن الزيات: **كتاب التشوف**، م.س.، ص ٩٨

(٧) م.س.، ج١، ص ٢٥٥

(٨) ابن قنفد: **انس الفقير وعز الحقير**، الرباط، ١٩٦٥، ص ٠٧

(٩) **معجم ابي علي الصفدي**. مدريد، ١٨٨٥، ص ٢٢٧

(١٠) ابن الابار: **التكملة** م.س.، ج ١، ق ٢، ص ٨٢٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ٨٢٦.

المغرب، فيزخر كتاب **الغنية** بتراجمهم[(١)]

ومن المظاهر التي «تفصح» عن تجذر هذه الوحدة الشعبية، الحج إلى الديار المقدسة، فقد كان هذا الحج تعبيراً غير مباشر عن الشعور الشعبي نحـو الوحـدة المغاربيـة. وحسبنا أن يحي بن إبراهيم ـ أحد الأقطاب المؤسسين للدولة المرابطية ـ مر في طريقه إلى الحج بالقيروان التي كانت «قبلة» أولى في ركب الحجاج المغاربة، إلى درجة يمكن معها القول إن النسيج الأول للأيديولوجية المرابطية تكوَّن في القيروان.

وبالمثل ظلت التجارة إحدى الأدوات التي عكست هـذا المنظور الشعبي للـوحدة. فـالعداء السياسي بين المرابطين وبني حماد، لم يؤثر في جماهير التجـار. وحسبنا أن تجـار بجايـة كانـوا يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وغيرهم[(٢)] وزاد تشابه المعايير في الكيل والـوزن والنقود في جُلّ بلدان المغرب الإسلامي[(٣)] من تجذر هذه الوحدة التجارية. كما أن قلعة أبي طويل (قرب القيروان) أصبحت في عصر البكري مقصد التجار من سائر بلاد المغرب[(٤)]. والحكم نفسه ينطبق على سجلماسة بالمغرب الأقصى[(٥)] وقفصة التي كان تجارها يخرجون محملين بالسلع، ميممين وجههم شطر المغرب والأندلس[(٦)].

وتتجلى مظاهر التوحد الشعبي كذلك حتى في الأطعمة، فقد ذكر صاحب كتاب **الطبيـخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين** جملة من الأطعمة التي تخصصت فيها إفريقية، وتأثر بها المغاربة ومنها القرصة التونسية والعسل المستخدم في الولائم[(٧)].

وتبرز قيمة التصوف كمعطى ثابت من ثوابت الوحدة المغاربية على الصعيد الشعبي، ولا غرو فإن فكرة الشيخ والمريد، حطمت كل تصور للحدود السياسية. فالمتصوف المغربي المشهور أبو يعزى هو شيخ أبي الغوث[(٨)] الذي كان يقيم في بجاية[(٩)]، ومنه لبس الخرقة[(١٠)]، ومن شدة إعجابه بشيخه أنه قال عن كراماته «ينبغي أن تُكتب بالذهب[(١١)]» وكان لا يبرح مدينـة فاس نظـراً للصلات الـوثيقة التي جمعته بأبي العباس أحمد البرنوسي حيث تعبدا معاً في جبل الظل المعروف بجبل زلاغ[(١٢)] وكان

(١) عياض: **الغنية**، م.س.، انظر على سبيل المثال ص ٩٣

(٢) الادريسي: **وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية**. م.س.، ص ٩٠

(٣) السامرائي: **علاقات المرابطين بالممالك الاسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية**. بغداد، ١٩٨٥، ص ٤٢١.

(٤) البكري: م.س.، ص ٤٩.

(٥) الادريسي: م.س.، ص ٦٠

(٦) مجهول: **كتاب الاستبصار**. الدار البيضاء، ١٩٨٥، تحقيق سعد زغلول، ص ١٥٣

(٧) **كتاب الطبيخ**، ص ٢٠٦ ـ ٢١٥ نشر في **مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية**. مدريد، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢، مجلد ٩ ـ ١٠ ـ ١١

(٨) مخلوف: **شجرة النور الزكية**. بيروت، ١٣٤٩ هـ، ص ١٦٣

(٩) التلمساني: **النجم الثاقب** (مخطوط) ص ١٨٤

(١٠) التادلي: **المعزى في مناقب الشيخ ابي يعزى** (مخطوط) ص ٨٨.

(١١) ابن الزيات: م.س.، ص ٣٢٣

(١٢) الشراط: **الروض العاطر الانفاس**، ص ١٤٩ و.

يبيت مع أبي علي المنصور وهو من فاس في بيت واحد[1]. كما جمعته صلات روحية مع أبي الحسن بن حرزهم حيث تتلمذ عليه[2]

والجدير بالذكر أن تبادل الزيارات بين المتصوفة كان سنّة ثابتة[3]، بل منهم من فضّل الإقامة في البلد الذي رحل إليه. فعندما ترجم ابن الزيات[4] لأبي عبد الله محمد بن سعدون بن بلال القيرواني ذكر أن أصله من القيروان، وأنه استقر بأغمات وريكة وفيها توفي.

من ذلك يتضح أن قاعدة التعامل على الصعيد الشعبي كانت مهيأة حيث لم تؤثر فيها الصراعات بين الحكام، بل إن هذه القاعدة كانت تطرح البديل الوحدوي لاكتساح واقع التجزئة والاقليمية.

III - ارتباط المشروع الوحدوي المرابطي بأوضاع «دار الإسلام»

ثاني هذه الملاحظات تكمن في أن المشروع الوحدوي المرابطي لم يجر بمعزل عن منظومة وحدة «دار الإسلام» وخلافة الشرق السنية. وليس في نظرنا صحيحاً ما ذكره بعض الدارسين[5] الذين اعتبروا إنشاء الدولة المرابطية - مهد الوحدة المغاربية - إعلاناً للاستقلال الفعلي للمغرب عن المشرق، أو ما زعمه البعض الآخر[6] من أن قيام المرابطين يعبر عن «استعادة البربر لمصيرهم بين أيديهم». وحتى مقولة «المشروعية الشرقية» التي طرحها باحث آخر[7] لا تعفيه من هذا الحكم، لأن المسألة لو انحصرت في مجرد الحصول على المشروعية لاقتصرت على بداية تكون الدولة. ولكن على العكس يلاحظ أن الظاهرة استمرت متجلية في ايفاد السفراء إلى بغداد[8]، حتى أنها أصبحت سُنّة يسير على هديها كافة الأمراء المرابطين، فما كاد علي بن يوسف يتسلم السلطة، حتى بادر إلى طلب تجديد العهد من قبل خلافة الشرق، واستمر الدعاء للخليفة العباسي على المنابر، وذكر اسمه على وجه العملة المرابطية[9]، واتخاذ شعار السواد. وحتى بعد سقوط الدولة، لم يخف بنو غانية - حفدة المرابطين - ولاءهم لبني العباس[10]، في الوقت الذي ناصبوا الفاطميين العداء، رغم تقرب هؤلاء إليهم.

وإذا كان لقب «أمير المسلمين» يجسد فعلياً هذا الارتباط الروحي - الحضاري بمنظومة الأمة

---

(١) التميمي: **المستفاد في اخبار الصالحين والعباد**. (مخطوط) ص ٠٣

(٢) التادلي: م.س.، ص ٦٥ و.

(٣) ابن قنفد: م.س.، ص ٩٤

(٤) كتاب **التشوف**، م.س.، ص ٨٣.

(٥) اكنوش: **تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب**. الدار البيضاء (دون تاريخ)، ص ٦٦

(٦) MTOUGGI: *Vue générale sur l'histoire berbère*, p. 98.

(٧) القبلي: م.س.، ص ١٤

(٨) الناصري: **الاستقصا**. الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج ٢، ص ٥٨

(٩) ابن أبي دينار: **المؤنس في اخبار إفريقية وتونس**. تونس، ١٩٨٦ ، ص ٠٩

(١٠) حسن علي حسن: **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس. عصر المرابطين والموحدين**. مصر، ١٩٨٠، ص ٥٤.

الإسلامية، فمن السخف اعتبار هذه التسمية راجعة إلى عدم انتساب المرابطين لسلالة الرسول عليه السلام[1]، بل الواقع ـ كما تنبه إلى ذلك أحد الدارسين[2] ـ أن سياسة المرابطين الوحدوية كانت ترمي إلى المحافظة على وحدة دار الإسلام، وردّ المغرب إلى «أحضان الجامعة الإسلامية» على حد تعبير باحث آخر»[3].

ولا يتأتى إدراك هذا المسار الوحدوي إلا من خلال الوقوف على التيارات السياسية التي شهدها العالم الإسلامي آنذاك، فقد قدِّر للمذهب السني الانتشار في ربوع الشرق تحت قوة الزحف السلجوقي. وانطلاقاً من مقولة «سيولة التاريخ الإسلامي» كان من البديهي أن يعكس هذا المد صداه في الغرب الإسلامي، وهو ما فطن إليه باحث نبيه[4] حين لاحظ ـ بحق ـ تشابه ظروف قيام الدولتين السلجوقية والمرابطية، مما ينهض دليلاً على أن الحركة السنية مثلت ظاهرة عامة بصمت مسيرة الدولتين معاً، وهو ما يفسر من جهة ثانية الترابط الوثيق بين وحدة المغرب العربي والخلافة في الشرق، خاصة إذا علمنا أن بني حماد والزيريين نبذوا دعوة الفاطميين الاسماعيليين.

ومهما كان الأمر، فإن هذه الظاهرة ـ ظاهرة الارتباط مع الشرق الإسلامي ـ انعكست بصورة أوضح على المستوى الشعبي، فقوافل الحجاج المغاربة إلى مكة والمشرق ازدادت أعدادها رغم عدم توفر الأمن بسبب استيلاء الفاطميين على مصر. والواقع أن التواجد الفاطمي لم يحل دون احتضان مصر للمغاربة. وتطفح كتب السِّيَر والطبقات بسيل من الأمثلة التي تصب في هذا الاتجاه. فعندما ترجم ابن الأبار[5] لابن أبي الصلت (ت ٥٢٠ هـ)، يذكر أنه لزم التعلم بمصر عشرين سنة. وهناك من المغاربة من آثر الاستيطان فيها نهائياً كما يُستشف ذلك من خلال رواية صاحب **كتاب المستفاد**[6]. وبعد أداء فريضة الحج، كانوا يحتكون بمشاهير علماء مكة[7] حتى إذا ما طاب لهم المقام فيها، واستقطبهم اشعاعها العلمي، آلوا إلا أن يجعلوها دار مقام واستقرار. فهذا أبو الحسن ابن محمد المكناسي ـ كما يذكر التميمي[8] ـ غمره جوها الديني والعلمي، مما حدا به إلى الإقامة فيها نهائياً بعد أن قدَّمه أهلها «لإمامة المالكية».

ولم يقتصر تواجد المغاربة والأندلسيين على مصر ومكة فحسب، بل وصلوا إلى العراق، وهناك طبّقت شهرتهم الآفاق. فأبو الأصبغ عبد العزيز بن علي «حج ودخل العراق وقرأ بواسط... ودخل الشام، واشتهر ذكره وجل قدره»[9]. أما أبو محمد عبد الله بن عيسى فقد «دخل العراق وخراسان،

---

(١) اكنوش: م.س.، ص ٧٠
(٢) حركات: **المغرب عبر التاريخ**. الدر البيضاء، ١٩٦٥، ج ١، ص ١٨٥
(٣) كنون: م.س. ج ١، ص ٦٨
(٤) محمود إسماعيل: **مقالات في الفكر والتاريخ**. الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص ٧٢ ـ ٧٣
(٥) **المقتضب من تحفة القادم**، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٦.
(٦) التميمي: **كتاب المستفاد**، م.س.، ص ٢٣
(٧) مثل لقاء أبي الحسن بن احمد بالإمام الغزالي. انظر المصدر نفسه، ص ١١٧.
(٨) المصدر نفسه، ص ٤٢.
(٩) المقري، **نفح الطيب**. بيروت، ١٩٦٨، ج ٢، ص ٦٣٤

وأقام بها أعواماً وطار ذكره في هذه البلاد»[1]. ومعلوم أن الإمام يحي بن إبراهيم أحد الأقطاب البارزة في تأسيس دولة المرابطين قد جال في أرجاء العالم الإسلامي، وادرك وضعه إدراكاً تـاماً قبـل إقدامه على بداية المشروع الوحدوي[2].

وبالمثل، فإن العراقيين توجهوا بذورهم نحو الأندلس التي كانت آنذاك ولاية مغربية، ومن هؤلاء هشام بن محمد الذي «تنافس الناس في الأخذ عنه»[3].

وعلى غرار الصلات العلمية، لم ينطفىء شعاع الصلات الروحية بين الشرق والغرب، إذ يخبرنا ابن الزيات[4] بأن طائفة من متصوفة الشرق وصلوا إلى بلدة أزمور لزيارة بعض متصوفة المغرب كأبي عبد الله بن أمغار وأبي شعيب وأبي عيسى.

كل هذه القرائن ـ الرسمية منها والشعبية ـ تنهض دليلاً على أن المد الوحدوي المغاربي تأطر في وعاء المد الوحدوي الإسلامي العام، خاصة أن الحروب الصليبية كانت على الأبواب تدق ناقوس الخطر.

IV - أثـر العوامـل الداخليـة والصراع مع «دار الحـرب» في ميـلاد المشروع الوحدوي المرابطي:

وتكمن الملاحظة الثالثة في أن المشروع الوحدوي المـرابطي لم يندرج بمعـزل عن الظروف الخارجية، ومن ثَم فإن معرفة الأحوال العامة في حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الإسلامي والأوروبي تسهِّل أمر فهم هذه الوحدة وحتميتها.

نختصر القول بأنه في الوقت الذي كان العـالم الإسلامي يغمـره المد الاقطـاعي[*] فكريـاً وسياسياً، حيث الغلبة للغيب على حساب العقل، والتجزئة على حساب الوحدة، كان العالم الأوروبي قد أوشك على ولوج عصر النهضة، وأخذت ذيول الاقطاع تنحسر لصالح الارهاصات البورجوازية،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٥٠

(٢) GIRARI: «Les Almoravids (état, doctrine, œuvre)» in: *DIRASAT IFRIQUIYYA.*, n° 2, 1986, p. 162.

(٣) ابن الزبير: **صلة الصلة**. قسم الغرباء الذي نشره بن شريفة كملحق لكتاب **الذيل والتكملة** لابن عبد الملك، م.س.، ص ٥٦١.

(٤) **كتاب التشوف**، م.س.، ص ١٨٥

(*) عن مفهوم الاقطاع في الإسلام راجع: عبد العزيز الدوري: «نشأة الاقطاع في المجتمعات الإسلاميـة»، **مجلة المجمع العلمي العراقي**. مجلد ٢٠ سنة ١٩٧٠. وكذلك: LAMBTON: «Reflexions on the Iqta». *Arabic and Islamic Studies*. Leiden, E.J.Brill, 1965, pp. 358 - 376. وقد خصصنا لهذه الإشكالية فصلاً في كتابنا: **اثر الاقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة**. الرباط، دار عكاظ، ١٩٩٢ ص ٣٧ ـ ٦٥. وكذلك دراستنا: «هل عرف المجتمع العربي الاقطاع؟»، **مجلة الوحدة**، عدد ٥٧ (١٩٨٩). وعن «الفكر» الاقطاعي في فترة السلاجقة راجع بنسالم حميش: «عن الغزالي ومرحلة الاقطاع»، **مجلة البديل**، العدد الأول، ربيع ١٩٨١ ص ٤ ـ ٥٦.

بما تعكسه من وحدة وتماسك على الصعيد السياسي[1] خاصة في بعض المدن الايطاليـة، هذا في الوقت الذي كان المغرب الإسلامي يعيش تحت ضربات بني هلال المدمرة، والقبائل الزناتية المتناحرة على السلطة.

وعلى مستوى آخر، دخل العالم المسيحي عصر الاندماج السياسي، ودشن نوعاً من التوحد الديني حيث استطاعت الكنيسة في روما أن تسرِّب نفوذها، وأخذت البورجوازية الأوروبية تتطلع نحو النفوذ والسلطان، فانتعشت لذلك الحياة الاقتصادية[2].

وعلى الرغم من اهتمام المرابطين بالأسطول، وبروز سياستهم المتوسطية في أوضح صورها، فإن ذلك لم يكن كافياً «لتخويف المتطلعين والمتربصين» كما يذهب إلى ذلك أحد الباحثين[3] ولو أن قوام الأسطول بلغ مائة بارجة حربية[4].

فمن إنصاف القول، أن نؤكد على أن ميزان القوى أصبح في صالح المسيحيين، إذ غدت أوروبا كلها تقريباً موحَّدة تحت راية الكنيسة، وبدأ دبيب النهضة يغمرها، كما بدأت شعوبهـا تنتعش، ووعيها يستيقظ، فأصبحت تطالب بحقوقها، وتناقش حكامها أولاً بأول[5]. ودعمت هذه النهضـة السياسية بانتعاش الحركة التجارية، وأصبحت أساطيل جمهوريات إيطاليا تجوب البحر المتوسط طولاً وعرضاً، وتطهره من أوكار الأساطيل الإسلامية[6]. ولا غرو فقد شنت هجومات عنيفة عـلى سردينيا، واستولت على بونة سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م). ومنذ سنة ٤٥٣ هـ انتهزت القوى النصرانية فرصة انشغال الزيريين بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين، فأخذوا ينتزعون منهم المدينة تلو الأخرى حتى تمت لهم السيطرة نهائياً على صقلية سنة ٤٨٠ هـ، ثم بدأوا يقلقون راحة الزيريين في عقر دارهم، مصداق ذلك تعرض زويلة والمهدية لاعتداءات صارخة انتهت باستيلائهم عليهما.

ولم تكن الجبهة الأندلسية في موقف يحسد عليه، فالممالك النصرانية تخلت عن نزاعاتهـا، وأخذت توجه كل قواها ضد أعداء النصرانية، بفضل ألفونسو السادس(*) الذي تمكن من احتلال طليطلة أعظم معقل للدولة الإسلامية في الأندلس، وصاغ الوحدة السياسية بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ إسبانيا النصرانية[7]. وأخذ الزعيم المسيحي الذي لقب بذي الملتين، يستدر عطف الكنيسة، فألغى الطقوس القوطية من الكنيسة الاسبانية، وأحلَّ محلها الطقوس الرومانية، وكان لهذه السياسة

---

(١) محمود إسماعيل: م.س.، ص ٧٦

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٦

(٣) التازي: «الأسطول المغربي عبر التاريخ». مجلة **البحث العلمي**. العدد ٣٣، سنة ١٩٨٢، ص ١٨

(٤) حركات. م.س.، ص ٢٢٨

(١) رينو: **غزوات العرب**، ص ٢٠٠ نقلاً عن حسن محمود: م.س.، ص ٢٤٠

(٦) حسن محمود: م.س.، ص ٢٤٠

(*) الفونسو السادس (١٠٤٠ ـ ١١٠٩ م) اعتلى عرش ليون سنة ١٠٦٥ م وضم قشتالة سنة ١٠٧٢ ، ثم استولى على طليطلة من المسلمين في ٣ ايار/مايو ١٠٨٥ م/صفر ٤٨٧ هـ، واضاف إلى مملكته منطقة جليقية التي كانت بيد أخيه غارسيا. توفي في ١١٠٩ م/٥٠٢ هـ.

(٧) أشباخ: م.س.، ص ٦٨.

أثر بعيد في حركة الاسترداد وإشعال نار الحروب الصليبية التي صارت ترعاها كنيسة روما وتباركها[١] حتى أصبحت الأندلس «خط الصدام الأول» على حد تعبير أحد الباحثين[٢]. ومما يزكّي هذا القول ويفصح أن المغرب العربي أصبح هدف الحروب الصليبية، أن البابا أوربان الثاني لم يسمح لبعض الاسبان بالمساهمة فيها، بدعوى أن مقاتلتهم للمسلمين تعتبر مشاركة فعلية فيها[٣] بل إن ألفونسو السادس وصل ـ كما تذكر الرواية العربية ـ إلى جزيرة طريف في أقصى الجنوب، فأدخل قوائم فرسه في البحر، وقال بأن «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته»[٤].

ومن القرائن التي تعكس شدة الصدام بين القوى المغربية والمسيحية في البحر المتوسط ما أكدته القوانين التي صادق عليها المجلس الملكي في البرتغال؛ وحسبنا أنها أقرت بخصوص طبقة النبلاء أن الذين يدخلون في عدادها ينحصرون في أبناء شهداء النصرانية، وأن صفة النبل ترفع عن كل من فر إلى المسلمين[٥].

وتعكس المصادر هذا الواقع المر، فابن عذاري[٦] يتحدث عن استيلاء القوى النصرانية على المهدية سنة ٤٨٠ هـ، ونهب ما فيها، وإحراق سكانها بالنار. ويشير مؤرخ آخر[٧] إلى استيلائهم على جزيرة يابسة من عمل ميورقة.

لقد ظلت هذه المعطيات الخارجية تدفع المغرب العربي إلى التوحد لمجابهة الخطر النصراني، وحفظ الامتياز التجاري لصالح القوى المغاربية في حوض البحر المتوسط. وظهرت الأصوات الشعبية واضحة في هذا المجال. ففي سنة ٥٢١ هـ، شكّل أهل المهدية وفداً لمقابلة حاكم بجاية من آل حماد وهو يحي بن عبد العزيز، لطلب المساعدة قصد التصدي للغارات المسيحية[٨]. ومن ذلك يتضح أن الاصطدام مع العالم المسيحي شكل معلمة بارزة في مسار وحدة المغرب العربي.

وثمة ملاحظة رابعة لا تقل أهمية عن سابقاتها، وهي أن المشروع الوحدوي المرابطي انطلق لأول مرة من الجنوب، ومن طرف القوى الأمازيغية المحلية. فعلى عكس المحاولات السابقة، كانت المشاريع الوحدوية تنطلق من الشرق، حيث كان المغرب يتلقى الأيديولوجيات الوافدة، والزعماء العرب الذي كانوا يؤسسون إمارات سرعان ما تتهاوى وتفشل في تحقيق الدولة الموحِدَة L'état unificateur. ولذلك لا يسعنا إلا أن نعتبر أن فشل المحاولات السابقة في بناء كيان سياسي موحد لا يعزى إلى عجزها عن توحيد الطرق التجارية تحت سيطرتها فحسب، بل يرجع كذلك إلى أن أصحابها لم يكونوا من العترة المغربية الخالصة، فكانوا بذلك «دخلاء» على العصبية التي ناصرتهم

(١) حسن محمود: م.س.، ص ٢٤٢

(٢) سعدون نصر الله: **دولة المرابطين في المغرب والأندلس**. بيروت، ١٩٨٥، ص ٠٣

(٣) LEMANN: «L'origine de l'idée de la croisade»: *Hespris* , 1973. T. XXIV., P. 139.

(٤) ـابن أبي زرع: م.س.، ص ١٤٣

(٥) أشباخ: م.س.، ص ٢٤٩

(٦) **البيان المغرب**، م.س. ج ١، ص ٣٠١

(٧) ابن الكردبوس: م.س.، ص ١٢٢

(٨) السامرائي: م.س.، ص ٣١٩.

على حد تعبير ابن خلدون.

وفي الوقت الذي جرى تسرب هذه المحاولات من الشرق، يلاحظ لأول مرة أن المشروع الوحدوي المرابطي جاء من الجنوب، والأمر في حد ذاته يحمل بعداً اقتصادياً يتجلى في تدهور طرق التجارة المؤدية إلى الشرق، خاصة الطريق المار عبر واحة فزّان الذي محت آثاره العواصف، لصالح الطريق الساحلي النابع من الجنوب الصحراوي الذاهب نحو عالم البحر المتوسط وأوروبا.

ومهما كان الأمر، فإن مساهمة القوى المحلية في صنع هذا القرار السياسي، جعلت المشروع الوحدوي المرابطي أول وحدة مغربية خالصة تُعبِّر عن الشخصية المغربية الإسلامية[١].

V- الشروط الإيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية لميلاد المشروع الوحدوي المرابطي

ومن الملاحظات الأخرى التي يمكن أن نسوقها حول المشروع المرابطي هو أنه تسلح بإيديولوجية إصلاحية تمثلت في المذهب المالكي الذي أصبح في نظر المغاربة مذهباً وعقيدة ووطنية على حد تعبير أحد الدارسين[٢]. وقد تضمنت هذه الحركة التصحيحية فكرة إقامة دولة موحدة على أساس الرجوع إلى الينابيع الأولى للإسلام، وتطهير المجتمع ولو عن طريق الشدة[٣]، وهذه أول مرة تحدث حركة في هذا الاتجاه.

وإذا كانت الإيديولوجية المالكية قد مكّنت لنفسها من الغلبة والهيمنة، فإن ذلك لا يفسر بأنها «المعقل الذي عصم أهل المغرب من شرور الفتنة»[٤] أو «معارضة الفقهاء المالكيين للسلطة». فقد أثبتت الأحداث أن هؤلاء الفقهاء شكّلوا السند القوي للسلطة المرابطية. والتفسير السوي القمين بإدراك صحوة المالكية في المغرب رهنٌ بربطه بالشرق الإسلامي الذي كان يعرف مداً سنياً. وليس ثمة ما يحول دون القول بأن خطة تطويق المذهب الشيعي من جناحي العالم الإسلامي يفسر ما قام به المرابطون. فإذا كانت الأشعرية في الشرق قد مهدت الطريق للسلاجقة، فإن هذا الدور كان من نصيب المرابطين في الغرب[٥]. وليس بعيداً أن يكون الفقهاء المالكيون هم الذين عرضوا على يحي بن إبراهيم فكرة مد قومه بمرشد روحي. وعندئذ فإن تسلسل الأحداث من أبي عمران الفاسي إلى وجاج بن زلو إلى عبد الله بن ياسين لم تحدث بمحض الصدفة. ولم تكن كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين[٦] حين رأى ـ من منظور عنصري ـ أنه لقاء بين برابرة. بل إن هذه السلسلة تشكلت من خلال مجموعة من الدعاة السنيين العباسيين[٧]. وقد فطن إلى ذلك أحد الباحثين فأشار إلى أن عصر المرابطين

---

(١) محمود إسماعيل: م.س.، ص ٦٦

(٢) حسن محمود: م.س.، ص ٩٠.

(٣) انظر التفاصيل عند البكري: م.س.، ص ١٦٥ ـ ١٦٦

(٤) حسن محمود: م.س.، ص ٩٨

(٥) محمود إسماعيل: م.س.، ص ٧٢.

(٦) MTOUGGI: Op.Cit., p. 99 - 100.

(٧) LAROUI: Op.Cit., p. 147.

صادف عصر ظهور كبار الفقهاء[١]. وللأمر مغزاه في الدلالة على المد السني الذي اجتاح العالم الإسلامي شرقاً وغرباً.

وإذا ربطنا بين الإيديولوجية وواقعها التحتي، فإنه يتبين من خلال ما توصلت إليه بعض الدراسات أن الحكم السلجوقي مثّل ذروة المد الاقطاعي على الصعيد السياسي، وأن الأشعرية جاءت انعكاساً لهذا النظام على الصعيد الفكري ـ الإيديولوجي. أما في المغرب فيمكن التمييز بين ثلاثة مذاهب كان بإمكانها أن تلعب دور المنافسة على مستويات مختلفة: المذهب الحنبلي على مستوى العقيدة، والشافعي على صعيد المنهجية الفقهية، والمالكي على مستوى التنظيم الفقهي. ومع أن المذهبين الأولين كانا يلقيان تجاوباً من طرف الطبقات الدنيا في المدن والأوساط التجارية[٢]، فإن المد الاقطاعي الذي كان يجتاح العالم الإسلامي بما في ذلك المغرب لم يسمح لهما بالغلبة والانتصار، فضلاً عن أن هذه المذاهب لن يكن يعززها منطق أو فلسفة معينة كما حدث في المشرق[٣].

كما أن انتصار الإيديولوجية المالكية يفسر بما كان يمثله شمال المغرب آنئذ، فقد كان أشد تعلقاً بالإسلام بفضل جهود الأدارسة ونمو حركة التجارة مع الأندلس[٤] ومن هنا يمكن تفسير طريق الاكتساح الذي سلكته المالكية انطلاقاً من المدن التجارية كما حددها ابن الخطيب[٥]. وهذا الدور يجسد ما طمحت إليه هذه القوى الموحدة من استيلاء يضمن لها السيطرة الكلية على تجارة الشمال والجنوب أي تجارة الذهب، ومحاولة احتكار تسويقها في بلاد المغرب[٦].

وعلى أية حال، فإن المذهب المالكي أصبح خطاً إيديولوجياً وحدوياً. ومما زاد في نفوذه و «جماهيريته» تلك الصبغة الثورية[٧] التي ظهر بها خاصة في المراحل الأولى من تأسيس الدولة المرابطية التي وجدت سنداً يُعطيها مشروعية التحرك في الاتجاه الوحدوي.[٨]

وكما تسلّح المشروع الوحدوي بإيديولوجية إصلاحية منحته مشروعيته وديناميته، فإنه استند على شرط اقتصادي تجلى في سيطرة المرابطين على طرق التجارة بعيدة المدى، كما أن دور الوسيط التجاري الذي اضطلعوا به زاد من تجذُّر وحدة المغرب، وإنعاش اقتصاده وتطوير وسائل إنتاجه، مما دعم قاعدتهم المادية لتحقيق وحدة المغرب العربي.

ويكفي دليلاً على ذلك كون الحركة المرابطية اتبعت في خط سيرها نحو الشمال أهم المدن التجارية وهي سجلماسة وتارودانت وأغمات وسهول تامسنا الغنية ثم فاس. وبذلك أصبحت تتحكم

---

(١) حركات: م.س.، ص ١٩٢

(٢) LAROUI: Op.Cit., p. 146.

(٣) حركات: م.س.، ص ١٩٣

(٤) LAROUI: Op.Cit., p. 146.

(٥) **اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام**. بيروت، ١٩٥٦، ج ٢، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٦) محمود إسماعيل: م.س.، ص ٧٢

(٧) الجراري: **وحدة المغرب المذهبية**، م.س.، ص ١٧

(٨) المرجع نفسه، ص ٢٨.

في طرق تجارة القوافل[1] وبإحكام قبضتها على هذه الطرق تمكنت من خلق الكيان السياسي الموحد.

ولا يخامرنا شك في أن التشرذم السياسي الذي سبق المرابطين لم يكن سوى انعكاس لتصدع الطرق التجارية وتفتيت ملكيتها بين مختلف الكيانات القزمية. كما أن اعتماد المغاربة على حياة الترحال والتنقل أعاق عملية إنجاز الوحدة السياسية حيث لم يقدَّر للقبائل المتنقلة إقامة حلف سياسي، على عكس قبائل الملثمين التي نجحت في إقامة هذا الحلف الذي يعد النواة الأولى للوحدة المغاربية، وهو نجاح يُفَسَّر بسيطرتهم على الطريق التجاري الذاهب إلى السودان، لذلك لا عجب أن يتصدوا للقيام بهذا المشروع السياسي الوحدوي.

وتُعد السيطرة على طرق التجارة البعيدة انتصاراً للوحدة على حساب الكيانات الأسروية القبلية. كما تعتبر مكسباً مادياً هاماً، إذ تمكنت الدولة المرابطية ـ كقوة توحيدية ـ من استغلال دور الوسيط التجاري الذي أصبحت تلعبه، الشيء الذي مكّنها من جني «فائض» وُظف في حركة توحيد المغرب الإسلامي.

ومن جملة الملاحظات التي يمكن أن نسوقها كذلك بصدد المشروع الوحدوي المرابطي هو أن هذا الأخير ارتكز على عامل لا يمكن إنكاره، ويتعلق الأمر بقرابة الدم. فبنو حماد هم ـ أصلاً ـ بنو عمومة القبائل الصنهاجية الضاربة في الجنوب المغربي، لذلك فإن العلاقة بين الجانبين لم تعرف تصعيداً خطيراً في النزاع رغم طموح المرابطين المبدئي إلى توحيد المغرب العربي عن طريق ضم المغرب الأوسط، بل إن عامل القرابة «لطّف» من حدة الصراع، ووفّر أطواراً من المهادنة، بل والتعاون أحياناً إلى درجة جعلت بعض الباحثين[2] يذهبون إلى القول بأن علاقة القرابة تلك، جعلت يوسف ابن تاشفين لا يتقدم في عملية التوحيد شرقاً، بل إن التعاون بلغ ذروته في عهد الأمير الحمادي بلكين ابن حسن (٤٤١ ـ ٤٤٤ هـ) حين أمدّ بني عمومته من الملثمين بجيش ضخم لتدعيم الوحدة الصنهاجية في الشمال والجنوب[3].

ونحن لا نصادر على هذه الظنون، ولكننا نؤكد مع ذلك أن عامل القرابة لم يكن حاسماً في عملية التوحيد بقدر ما كان ظرفياً فحسب، وأن عوامل الهيمنة ـ بما تعنيه من سيطرة على الطرق التجارية ـ كان وراء هذه المسألة، وهذا ما يفسر ترحيب الحماديين بأبناء عمومتهم في بداية تكوّن دولتهم وتضامنهم معهم إبان ظهور الخطر الموحدي[4]، وعدم الاطمئنان إلى نياتهم عندما أصبحوا يهددون خطوطهم التجارية الغربية.

وبالرغم من «ظرفية» هذا العامل، فقد لعب دوره في نمو فكرة الوحدة المغاربية خاصة حين كانت في طورها الجنيني، في الصحراء المغربية.

---

(١) محمود إسماعيل: م.س.، ص ٧٣ ـ ٧٤

(٢) سعدون نصر الله: م.س.، ص ٥٧.

(٣) DELACHAPELLE: «Esquisse d'une histoire du Sahara occidental»,: *Hesperis*, 1930, Tome XI, p. 24. وكذلك السامرائي: م.س.، ص ٣٠٦

(٤) يذكر ابن عذاري أن جيشاً من بجاية وصل لمناصرة الأمير المرابطي تاشفين بن علي عندما كانت تلاحقه القوات الموحدية: انظر **البيان المغرب**، م.س. ج ٤، ص ٠٣.

VI - لماذا تعثرت التجربة الوحدوية المرابطية؟

بعد هذه الجملة من الملاحظات التي تشكِّل الشق الأول من هذا البحث، نحاول في الشق الثاني طرح بعض التساؤلات التي تبدو ضرورية لفهم آلية المشروع المرابطي الوحدوي. وأول تساؤل قد يواجه الباحث هو: هل كانت هذه الوحدة مسألة حتمية؟ وبمعنى آخر هل فقد النظام السياسي السابق على التجربة المرابطية مناعته ليترك مكانه للنظام السياسي الموحد؟.

عرف المغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري، أي قبيل ظهور المد المرابطي، نظاماً سماه عبد الله العروي بالنموذج القبلي الأسروي[1] حيث تقاسمته عدة حكومات «قبلية» زادت من تجذُّر التجزئة، وتفاقم النعرة القبلية[2] وأصبح نهباً لقوى طائفية مغامرة مزَّقت وحدته إلى إمارات إقطاعية.

وأثَّرت مجمل التقلبات السياسية على الوضع الاقتصادي، فالحروب التي ذَّرت قرنها بين مختلف الكيانات المتناحرة لم تتح للمنطقة ظروف السلم والاستقرار، وهي شروط أساسية لتقدم الإنتاج. يقول ابن أبي زرع[3] عن صراع الأمير فتوح بن دوناس مع أخيه عجيسة: «فكانا لايزالان يقتتلان ليلاً ونهاراً، فكثر الخوف في أيامهم بالمغرب وغلت الأسعار، واشتدت المجاعة، وعظُم الهرج، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال آناء الليل وأطراف النهار».

ومن جهة ثانية فإن «حسن التعاون» على حد تعبير تيراس، كان قد انعدم بين المناطق الجبلية والسهلية في القرن الخامس الهجري، فمن البديهي إذن أن يتدهور الإنتاج الزراعي في الوقت الذي لم يتمكن الزناتيون من حماية أهل السهول من عدوان البدو وغاراتهم[4].

وثمة عامل آخر ساهم في تدهور الحياة الاقتصادية في المغرب الإسلامي، وهو انهيار الطريق التجاري العابر لواحة فزَّان بسبب العواصف الرملية، مما أسفر عن ازدياد أهمية الطريق الغربي الذي كان يمر بديار الملثمين، فاحتكره هؤلاء لأنفسهم وحرموا الزناتيين منه. ولعل هذا الانقلاب في الطريق التجاري هو الذي فرض انهيار النموذج الأسروي القبلي كنظام سياسي لصالح المركزية السياسية التي ستتأسس انطلاقاً من عملية بسط هيمنتها على مختلف الطرق التجارية الأخرى.

وتمخض عن إفلات هذا الطريق من يد زناتة استئساد هذه الأخيرة في فرض المكوس والضرائب الجائرة[5]، مما أسفر عن تدهور الأوضاع، وظهور أعمال السلب والنهب، وفي ذلك دليل على أن دولة «الأسرة ـ القبيلة» كنظام سياسي أصبح متجاوزاً بعد أن عجز عن تحقيق ما كانت تطمح إليه الجماهير المغاربية من خلق ظروف ملائمة للإنتاج.

---

(١) LAROUI: Op.Cit., p. 144.

(٢) حسن علي حسن: م.س.، ص

(٣) روض القرطاس، م.س.، ص ١٧٣

(٤) TERRASSE: Op.Cit., p. 205.

(٥) DELACHAPELLE: Op.Cit., p. 69.

وإذا كان الوضع الاقتصادي المتسم بالانكفاء وعدم الانفتاح على التجارة بعيدة المدى قد أفرز بنية سياسية مهترئة، فإنه أفرز على الصعيد المذهبي كذلك تعددية في المذاهب. مصداق ذلك ما تشير إليه المصادر من انتشار مذاهب ونحل مختلفة[١].

يضاف إلى ذلك كله عدم قدرة حكومات «الأسرة ـ القبيلة» على محو التمايزات الاجتماعية حيث ظل الحكّام الزناتيون يشكلون نخبة عسكرية بعيدة عن هموم الجماهير، كذلك عدم قدرتهم على تطوير العمران. كل ذلك ينهض قرينة على أن حكومة «الأسرة ـ القبيلة» كجهاز سياسي ضيق أصبح عاجزاً عن استيعاب المتغيرات. وللأمر مغزاه في الدلالة على أن مسألة الوحدة أصبحت تفرض نفسها في ظل تلك التحولات، وأن عصر« المدن ـ الدول» كما سمّاه أحد الباحثين[٢]، سيترك مكانه لعصر الأمبراطوريات، وسوف يكون أول تعبير عن هذا العمل الهام ملحمة المرابطين.

بعد ذلك يتبادر سؤال ثان لا بد من الخوض فيه وهو: لماذا تعثرت التجربة الوحدوية المرابطية؟ وفي هذا الصدد لا بد من رؤية المسألة في عمقها الداخلي والخارجي على السواء.

+ فعلى الصعيد الخارجي، لا سبيل لانكار انشغال القوى المرابطية بردع التطلعات الصليبية وتحجيم دور النصارى إلى حد أنها لفظت أنفاسها وهي في زهرة شبابها. فقد وجّهت كل طاقاتها للتصدي لحركة الاسترداد المسيحي، ومن ثم خصصت كل النفقات للجانب العسكري، مما أفقدها قاعدتها المادية التي عملت جاهدة في بداية تكونها على ترسيخها. فمعركة الزلاقة لم تكن سوى انطلاقة لشوط جديد من التسلط الصليبي، تمخض عنه إضعاف الدولة وإرهاق ميزانيتها، وهذا جانب له أهميته في تفسير آلية التصدع الذي عرفته كقوى توحيدية على الصعيد الداخلي كذلك.

ويتجلى التصدع المشار إليه في الأزمات البنيوية التي شكلت منعطفاً خطيراً في المسار التاريخي للدولة. ذلك أن القوى التي حملت مشروع التوحيد كانت تحمل في ذاتها أمراضاً سياسية يمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ اعتماد الدولة على القوة الحربية لإعطاء المشروعية لنفسها، وتبنيها مشروعات توسعية تفوق طاقتها، وهذا ما يفسر انطفاء شعلتها وهي في أوجها. وتبرز في هذا الصدد وجاهة رأي أحد الدارسين[٣] حين استخلص بأن «مقولة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ـ أهم دعامة في الإيديولوجية المرابطية ـ هي مقولة سياسية تتضمن مشروعاً حربياً توسعياً. ويصور ابن أبي زرع[٤] هذا التوسع المرابطي في عبارة مختصرة متحدثاً عن علي بن يوسف: «وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وملك بلاد الأندلس شرقاً وغرباً، وملك الجزائر الشرقية

(١) يشير الادريسي إلى تواجد المذهب الشيعي في السوس: انظر **وصف إفريقيا الشمالية**، م.س.، ص ٦٠ وكذلك البكري: م.س.، ص ١٦١ هذا بالإضافة إلى فرق الخوارج التي عمّت المغرب الإسلامي، وأهمها الصفرية والأباضية.

(٢) LAROUI: Op.Cit., p. 144.

(٣) **اكنوش**: م.س.، ص ٦٨

(٤) **روض القرطاس**، م.س.، ص ١٥٧ ـ مجهول: **نبذة من تاريخ المغرب الاقصى** (مخطوط) ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ وانظر كذلك ابن القاضي: **جذوة الاقتباس**، الرباط، ١٩٧٣، ف ٢، ص ٤٦٠.

وميورقة ويابسة». ويلخص ابن الخطيب[1] ذلك في جملة أكثر إيجازاً بقوله عن يوسف بن تاشفين: «فقد خُطب به في بلاد المغرب على نحو ألفي منبر».

ولم يكن التوسع هو معضلة الدولة صاحبة المشروع الوحدوي فحسب، بل إن الأداة التي سُخِّرت لتحقيق ذلك تكونت من جيش ضم عناصر من المرتزقة من سودان وروم وصقالبة[2]. ولا يساورنا شك في أن تواجد جيش مرتزق، من شأنه إضعاف الوحدة والعمل على تصدّعها.

٢ ـ نمو السلطة الدينية وتطرفها، وهو ما أجمعت عليه الدراسات قديماً وحديثاً[3]. ونحن لا نتفق مع ما ذهبت إليه بعض الكتابات التي رأت أن هذه الظاهرة جاءت نتيجة قيام الدولة المرابطية على أساس ديني[4] بل إن ثروة الفقهاء واستيلاءهم على زبدة خيرات الدولة أهَّلهم لتسنّم هذا الموقع، وهو ما عبر عنه ـ بمرارة ـ الموقف الشعبي المتذمر[5].

وقد خلق هذا التشدد تناقضات داخلية في الحركة نفسها، وحسبنا معارضة فقيه سوس وجاج ابن زلوللاجراءات المتشددة التي اتخذها عبد الله بن ياسين، وهو ما يبين أن الاتجاه لم يكن سليماً كما يجب منذ بداية الحركة.

٣ ـ عدم تجاوز الإطار القبلي: فبالرغم أن المرابطين تمكنوا من فرض سلطتهم على معظم القبائل، وأخذوا يتطلعون لتوحيد المغرب الإسلامي تحت ظل سلطة واحدة ودولة مركزية واحدة، إلا أن دولتهم «الكبرى» ـ ظلت وفية للتراث القبلي. يتضح ذلك من خلال تقسيم المناصب السلطوية على أبناء قبيلة لمتونة، وجعل كل النفوذ حكراً عليها[6]. فالدولة المرابطية لم تتمكن من تكسير القشرة القبلية وتجاوز إطارها، وبالتالي توليد طبقة اجتماعية قادرة على فرض سيادتها الاقتصادية والإيديولوجية على المجتمع الجديد الذي أقامته انطلاقاً من مفهوم الدولة الموحدة، فالدولة اللمتونية بُنيت أساساً بالاعتماد على قوة القبيلة، ولذلك ظل التناقض قائماً بين السلطة والمجتمع. وبقيت القبيلة محور الحياة الاجتماعية، لا يستطيع الفرد أن يعيش فيها إلا منتمياً إليها[7]. وهذا التناقض في حد ذاته بين المشروع الوحدوي كأداة لتجاوز الإطار القبلي، وبقاء هذا الأخير ثابتاً في بنية الدولة

---

(١) **أعمال الإعلام**: م.س.، ص ٢٣٤

(٢) حسن علي: م.س.، ص ٣٣٢ ـ عز الدين أحمد موسى: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**. بيروت، ١٩٨٣، ص ١٠٧ ـ ١٠٨

(٣) انظر على سبيل المثال: حسن علي: م.س.، ص ٣٦ ـ عنان: م.س.، ص ص ٤١١ ـ ٤١٢. وقد عبر عن ذلك بمصطلح «الديكتاتورية الدينية» ـ الناصري: م.س.، ص ٧٥

(٤) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٥) يتجلى في قول الشاعر:

أهل الرياء لبستموا ناموسكم ... كالذئب في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتموا الأموال بابن القاسم

انظر المراكشي: **المعجب**، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣

(٦) ابن خلدون: م.س.، ص ١٨٥ ـ حسن علي حسن: م.س.، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠

(٧) TERRASSE: op.cit., p.32.

الموحدة يفسر أزمة توسع الدولة، حيث تحول هذا التوسع إلى مشروع يعمل ضدها، وبالتالي ضد وحدة المغرب العربي.

٤ ـ عدم تطوير الإيديولوجية المالكية وإفراغها من مضمونها الوحدوي: تذهب المقولة الخلدونية إلى التأكيد بأن المالكية تناسب طبائع المجتمع البدوي[١] وهي نظرية تبدو صحيحة. ومعلوم أن المالكية توافقت مع المد المرابطي خاصة في البداية، حين كانت البداوة لازالت الطابع المؤطر لسلوك أهل اللثام. أما وقد اتسعت الدولة وسيطرت على طرق الذهب، وغزتها مدنية الأندلس، فإن الإيديولوجية المالكية لم تستطع استيعاب هذه المتغيرات التي أصبحت قوية وسريعة الايقاع، كما عجزت عن مسايرة واقع أصبحت التجارة تشكل عصب وجوده[٢].

وإذا كان المد السني قد بلغ نضجه في المشرق الإسلامي حين تكامل مع المذهب الأشعري، فإن المالكية في الغرب الإسلامي حافظت على أصالتها، ولم تجر محاولة تطويرها أو إثرائها[٣]، حتى إن أحد الدارسين[٤] فطن إلى أن تجديد المذهب المالكي لم يتم سوى في العصر المريني.

كما أن هذه الإيديولوجية التي أعطت للوحدة ديناميتها عندما أصبحت «بثوريتها» تستقطب جماهير القبائل، سرعان ما تحولت إلى أداة لتطويق هذه الجماهير عندما أصبحت إيديولوجية تدعمها الدولة وترتكز عليها للحفاظ على نفسها، ومن ثم يصدق حكم أحد الدارسين[٥] حين أكد انها فقدت مصداقيتها في التعبير عن تظلمات الطبقات الدنيا في المدن (ولم لا البوادي؟!).

وبمجرد أن تحولت الدعوة الدينية التوحيدية إلى دولة أصبح الفقهاء بين خيارين: إما أن يناهضوا السياسة ويتمسكوا بالمذهب، أو يتخلوا عن المذهب وينعموا بالسلطة والنفوذ[٦]، فاختاروا الحل الثاني، ومن ثم أصبحت الإيديولوجية المالكية التي كانت إيديولوجية وحدوية فارغة من محتواها الوحدوي.

٥ ـ الإفلاس على الصعيد الاقتصادي: فمن المؤكد أن الثورة التومرتية وكذا مختلف ثورات المدن الأندلسية، بالإضافة إلى الحروب مع نصارى الشمال قد أثرت بشكل بليغ في ميزانية الدولة. وقد تفاقمت الأزمة المالية خاصة في عهد الأمير علي بن يوسف[٧]. ويمكن إرجاع سبب ذلك ـ دون شك ـ إلى النفقات العسكرية التي أجبر عليها النظام المرابطي، وما رافق ذلك من قحط، فجفت الأرض وقلت المجابي وكثرت الضرائب. ويصور ابن الأحمر[٨] هذا الواقع المؤلم صورة رائعة بقوله:

---

(١) ابن خلدون: **المقدمة**. م.س.، ص ٣٧٥

(٢) محمود اسماعيل: م.س.، ص ٩١.

(٣) LAROUI: op.cit., p.155.

(٤) الجراري: م.س.، ص ٢٨

(٥) LAROUI: op.cit., p. 155.

(٦) محمود اسماعيل: م.س.، ص ٩١.

(٧) عز الدين أحمد: م.س.، ص ١٦٥ ـ ١٦٦

(٨) **بيوتات فاس الكبرى**، الرباط، ١٩٧٢، ص ٣١

«وغلت الأسعار، وعم الجور، وكثرت المحن بالعدوتين وانقطع السفر والأسباب، وكثر النهب، وانقطعت الطرق».

وهكذا فإن الشرط الاقتصادي الذي تأسس عليه المشروع الوحدوي قد انهار، وكان لانهياره أثر في تعثره.

٦ ـ إفلاس على مستوى «النظام» السياسي: لقد ذكرنا سابقاً أن الحالة السياسية في المغرب قبل ظهور المرابطين أفرزت كيانات قزمية متناحرة، وأن الدولة المرابطية جاءت لتكتسح هذا التشرذم السياسي، وتقيم على انقاضه دولة مركزية. إلا أن المرابطين بحكم انتمائهم إلى قوة هامشية بدوية لم يستطيعوا حسم الصراع سوى بالاستناد على القوة. ولأنهم كانوا يتطلعون إلى النفوذ والسلطان وتحقيق الأمجاد اعتماداً على القوة الحربية، فإن النظام السياسي الذي أقاموه كان نظاماً إقطاعياً عسكرياً لا يتجاوب مع العمل الوحدوي المنفتح، والقائم على سياسة التسامح والسلم التي هي خير ضمان لنجاح الوحدة المنشودة واستمراريتها.

تساؤل آخر يمكن أن يجابه الباحث في التجربة الوحدوية المرابطية وهو: لماذا كان المغرب الأقصى متزعم حركة الوحدة؟.

إن مثل هذا التساؤل مرتبط بسابقه، وهو يجسد ضمنياً أزمة قيادة الوحدة التي كانت ضمن العوامل المؤدية إلى تعثر المشروع الوحدوي، ويمكن الإجابة عن هذه المسألة من خلال مخلفات بعض الأحداث التاريخية.

فلا سبيل إلى الشك في أن الغزو الهلالي وجّه ضربة قاصمة للزيريين والحماديين، حكام المغربين الأدنى والأوسط، وأثرّ في قواهما الاقتصادية خاصة طرق القوافل التجارية التي تحولت نحو المغرب الأقصى، فكان ذلك بمثابة «هدية» للمرابطين، وحكماً موضوعياً برجوح كفة المغرب الأقصى(١) وجعل الزعامة الوحدوية من نصيبهم. وقد زكّى ذلك قوة العملة المرابطية التي بلغت شأواً عظيماً وأصبحت وسيلة التعامل الدولي(٢)، وازدادت ثقة التجار بها بفضل الشهرة التي حازتها(٣)، فكثر عليها الطلب في كافة بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط حتى إن باحثاً(٤) اطلق عليها اسم «دولار القرون الوسطى».

وفضلاً عن ذلك، كان المغرب الأقصى من الناحيتين الاستراتيجية والحربية مؤهلاً لقيادة هذا المشروع. فمنذ أواخر القرن الخامس الهجري أصبح هو القاعدة المعتمدة في المغرب الإسلامي انطلاقاً من الضعف الذي أخذ ينخر لا المغرب العربي فحسب، بل المجتمع الإسلامي برمته(٥). ولم

---

(١) القبلي: م.س.، ص ١٦

(٢) الطيبي: «جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس الهجري» ـ **مجلة البحوث التاريخية**، عدد ٢، يوليو/تموز ١٩٨٤، ص ٤٤٦.

(٣) LAVOIX: *Catalogue des monnaies musulmanes de la bibliothèque nationale de Paris*. Paris, 1891, pp.30-35.

(٤) GOITEIN: *Letters of Medieval Jewish Traders*. Paris, P.U.F., 1973, p.325.

(٥) البرجالي: «أدب الجهاد في العدوتين: نموذج الجهاد المرابطي في العدوة لابن أبي الخصال»: **مجلة دعوة الحق**، عدد ٢٥٩ شتنبر ـ أكتوبر/ أيلول ـ تشرين الأول ١٩٨٠ ص ١٠٩.

يكن أمامه من خيار سوى التحدي التاريخي المتمثل في حتمية استيعاب تراكمات الواقع المغاربي وتجاوزها والنفوذ عبرها إلى تحقيق الوحدة المنشودة، وكان له من القوة الحربية ـ في بعض الفترات على الأقل ـ ما جعل القوى المتربصة بالمغرب العربي تحسب له الحساب[1]. ولعل هذا الموقع هو الذي جعله يتصدى لمشروع قيادة الوحدة وضرب القوى التي كانت تعاكسه خاصة القوى النصرانية. ولا أدّل على ذلك من أن مجريات الأحداث تبين أنه بمجرد ما أصبحت القوى المرابطية في أواخر عهدها عاجزة عن «حماية» الدولتين الزيرية والحمادية، تعرضت السواحل الجزائرية والتونسية لغارات الأسطول النورماني الذي أثخن في الأهالي قتلاً وتنكيلاً، ثم تمكن من احتلال جربة سنة ٥٣٠ هـ لتسقط المهدية بعد ذلك في يده سنة ٥٤٣ هـ[2]. هذا بالإضافة إلى أن الجزائر وتونس كلتيهما كانتا تعرفان صراعاً وتنافساً عائلياً حول السلطة [3]شغلهما عن قيادة الوحدة، ناهيك عن خراب عرب بني هلال للبلدين معاً وهو ما جعلهما لا تطمحان بتاتاً إلى زعامة المشروع الوحدوي، أو حتى تبنّيه واستساغته. ولعل هذا ما يفسر موقف الحماديين منه، وهذا ما يجعلنا نتساءل من موقع آخر: ألم يكن للموقف الحمادي بُعدٌ سلبي على المسلسل الوحدوي؟ وقبل ذلك ما هو هذا الموقف بالذات؟.

يمكن تلمس جانبين في الموقف الحمادي من المرابطين كقوة توحيدية: وجه سلمي، وآخر عدائي. وسبب هذه الإزدواجية في نظرنا راجع إلى أن الحماديين لم يدركوا عمق المد الوحدوي، وظنوا أنه مجرد لعبة سياسية تدخل في إطار التوسع، وهنا يكمن سر الصدمة التي أثارتهم منذ بدأ الزحف المرابطي في المغرب حيث تصدوا له بحزم ودون هوادة[4].

ورغم أن سياسة المهادنة وعلاقة حسن الجوار كانت تظهر أحياناً بمظاهر مختلفة كالمصاهرة [5] والقرابة[6]، فإن الحماديين اتخذوا موقف الحذر من المرابطين، بل ناصبوهم الحرب سنة ٤٧٦ هـ، ورووا غليلهم في الوقت الذي هبَّت القوات المرابطية إلى الأندلس[7]، حيث تحالفوا مع عرب بني هلال لضرب قواعدهم في المغرب الأوسط.

وتعكس رسالة يوسف بن تاشفين إلى الناصر بن علناس الحمادي والتي أوردها ابن خاقان[8] عمق أزمة الوحدة حين أشار فيها إلى الخيبة التي أصيب بها عندما علم باستعانة الأمير المذكور ببني هلال لمهاجمة المغرب، في الوقت الذي كان من الواجب أن تتضافر فيه الجهود لردع العدوان الصليبي. وهذه الأزمة تعبِّر عن أزمة القيادة، وهي أزمة موروثة حيث يتبين من رسالة أخرى كتبها أبو بكر بن القصيرة أن المنصور بن الناصر نهج سياسة أبيه العدوانية، ومن ثم استمرار «الحرب

(١) السامرائي: م.س.، ص ٣١٩

(٢) سالم والعبادي: **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**. بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٤٦.

(٣) ابن الاعرج: **زبدة التاريخ** (مخطوط) ص ٧

(٤) المرجع نفسه، ص ٧ ـ ابن خلدون: م.س. ج٦، ص ١٧٢

(٥) السامرائي: م.س.، ص ٣١٣

(٦) ابن الأعرج: م.س.، ص ١٣ ـ ابن خلدون: ص ١٧٦

(٧) ابن الأعرج: م.س.، ص ١٢

(٨) **قلائد العقيان**، طبعة المكتبة العتيقة، ١٩٦٨، ص ١١٩

الباردة»[1] التي كان لها أثر سيء على مصير الوحدة المغاربية، وكان من مظاهرها التجاء أمراء الطوائف المخلوعين إلى المغرب الأوسط[2].

ويحاول بعض الباحثين تلمُّس الأعذار لحرب «الأخوة الأعداء» فمنهم من يحمِّل المرابطين مسؤولية تكدر العلاقات فيصف أعمال الحماديين بأنها مجرد حرب دفاعية[3]، بينما يرى البعض أن هدف المرابطين انحصر في صد غارات عرب بني هلال ومنعهم من التسرب إلى المغرب[4]. لكن فات هؤلاء وأولئك أن معضلة الوحدة المغاربية في خضم هذا المناخ الملغز، تكمن في أن الخطاب الوحدوي كان خطاب قوة وعدم تفاهم. فحتى الرسالتان المذكورتان آنفاً كانتا تحملان خطاب العنف، وهذه إحدى المعضلات الأساسية التي نسجت حولها العلاقات بين دول المغرب الإسلامي. ولا نرى صحة ما ذهب إليه أحد الدارسين[5] حين ذكر أن المرابطين استطاعوا أن يُخضعوا الدول المجاورة لمبادئهم... «ولم يستعملوا في ذلك القوة إطلاقاً». بل على العكس كما يبدو من سياق الأحداث فهناك غياب المشروع السلمي للوحدة[6] يتجلى ذلك عسكرياً في الاصطدامات العسكرية بين الجانبين، وفكرياً في القمع الممنهج الذي جوبهت به المذاهب غير المالكية كالاعتزال[7] وعلم الكلام[8].

إلا أن ذلك لم يحُل دون وعي القاعدة الشعبية لسلبية هذا البعد، وهذا ما يفسر تحول عرب بني هلال الذين استعانت بهم القوى الحمادية لضرب المرابطين من قابليتهم العدوانية إلى حماسة جهادية تتبنى مقولة التوحيد التي تجسدت في مشاركتهم الفعالة مع المرابطين في معارك الأندلس[9].

ولحسن الحظ، فإن العلاقة بين المرابطين وآل زيري بالمغرب الأدنى ظلت حسنة على العموم، خاصة في عهد المعز بن باديس (٤٥٣ ـ ٥٠١ هـ). وحسن هذه العلاقة لا يفسر بانتماء الزيريين إلى البربر، بل لعدم وجود طرق تجارية محاذية لتخوم البلدين. وقد اعتبر أحد الدارسين[10] الرسالة الموجَّهة من طرف يوسف بن تاشفين إلى أمير المهدية بعد انتصار الزلاقة «محاولة أولية على طريق وحدة المغرب العربي».

يتبين من خلال ما سبق أن آل حماد بالمغرب الأوسط هم المسؤولون عن عدم إنجاز مشروع الوحدة الذي تبناه المرابطون، ويُعزى ذلك لعدم تفهمهم إياه واعتباره عملاً توسعياً.

---

(١) السامرائي: م.س.، ص ٣١٠

(٢) ابن خلدون: م.س. ج ٦، ص ١٧٦

(٣) السامرائي: م.س.، ص ٣١٢

(٤) المصدر نفسه، ص ٣١٢

(٥) GIRARI: *Les Almoravides,* op.cit., p.163.

(٦) هذا ما جعل فيكتور Victor يذهب إلى القول بأن المرابطين كانوا يحلمون بنشر مذهبهم بقوة السلاح، انظر كتابه: *Les civilisations de l'Afrique du Nord,* op.cit., p.130.

(٧) انظر موقف الفقيه ابن الحاج المعادي لهذا المذهب في: **نوازل ابن الحاج** (مخطوط) م.س.، ص ٣١٠.

(٨) هذا هو موقف ابن رشد الجد، انظر: **نوازل ابن رشد** (مخطوط) م.س.، ص ٦٥.

(٩) ابن أبي زرع: م.س.، ص ١٦٤

(١٠) السامرائي: م.س.، ص ٣١٦.

ويتفرع عن هذا التحليل تساؤل آخر وهو: لماذا لم يواصل المرابطـون زحفهم نحو الشرق، مفضلين الشمال فتعثروا في توحيد المغرب العربي؟ مع العلم أن إمارة بني حماد كانت من الضعف والهوان ما يجعلها لقمة سائغة في أيدي المرابطين؟.(١).

تباينت استنتاجات الدارسين بهذا الصدد، فالبعض ذهب إلى حل الإشكالية انطلاقاً من مقولة الغلبة، ففسر ذلك بأن الحماديين تمكنوا من ردع قوى الملثمين التي اضطرت إلى التراجع(٢)، بينما عزا البعض ذلك إلى عامل عنصري يتجلى في «إحساس بالتضامن العرقي مع صنهاجة الشرق»(٣)، في حين رد طرف ثالث ذلك إلى استغاثة أمراء الأندلس بالمرابطـين(٤)، في الوقت الـذي حصره أحد الدارسين(٥) في أنه ابتعاد حدث نتيجة توقف الخطر الهلالي، بينما أرجعه باحث آخر (٦) إلى «سياسة المهادنة» التي نهجها المرابطون.

والواقع أن كل هذه التفاسير لا تقوم على أساس صحيح حسبما نرجِّح. فعامل القرابة لم يحُل دون اصطدام الجانبين مراراً كما أسلفنا الذكر، بينما يظل القول بتصدي الحماديين للمـرابطين وإيقاف زحفهم قولاً يحيد عن الصواب، وآية ذلك أن قوة هؤلاء كانت من الأهمية ما يمكنها من سحق الحماديين بسرعة جارفة(٧)، خاصةً وأن بعض القبائل الزناتية في المغرب الأوسط أصبحت تواليهم وتخطب ودهم. كما أن الخطر النصراني كان يحدق بالإمارة الحمادية، ناهيك عن قبائل بني هلال التي كانت غصَّة في حلقها. ومعلوم أن يوسف بن تـاشفين تمكن من حصـد زهرة القـوى المسيحية في معركة الزلاقة، فكيف بالحماديين وهم في ذلك الموقف من الضعف والخـور؟ كما أن استغاثة أمراء الأندلس بالمرابطين لم يكن سوى مظهر سطحي تناقلته الروايات العربية. أما سياسة المهادنة التي يجعلها البعض سبباً في هذا الانكفاء، فإنه حتى لو افترضنا صحة ذلك جدلاً، فإن القوى المرابطية لم يكن بإمكانها الالتزام بها نظراً للموقف الحمادي المتَّسم بالنزعة العدائية.

والتفسير السوي لهذه المسألة يكمن فيما فطن إليه أحد الباحثين(٨) حين أشار إلى أن غزوات بني هلال التي حولت الطرق التجارية نحو الغرب، جعلت المغرب الأقصى يدخل في شبكة اقتصادية إفريقية غربية حتمت عليه تكثيف علاقاته التجارية مع أوروبا في وقت ازدادت فيه حاجة هذه الأخيرة إلى المغرب، ومن ثم تحويل الاتجاه من الشرق نحو الشمال. كل هذا ينهض حجة على أن عملية توحيد المغرب العربي ـ الإسلامي لم تكن ممنهجة بطريقة موضوعية وسليمة.

ويمكن أن نتساءل كذلك حول ما إذا كانت المتاعب الداخلية قد لعبت دوراً أساسياً في تعثر المشروع الوحدوي؟

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٠٦

(٢) محمد عويس: **دولة بني حماد**،ص ٢٤٦ نقلاً عن المرجع السابق، ص ٣٠٧

(٣) حسن محمود: م.س.، ص ٢٠٦

(٤) LAROUI: op.cit., p.149.

(٥) حسن محمود: م.س.، ص ٣٢٨

(٦) حركات: م.س.، ص ١٨٥ ـ ١٨٦

(٧) حسن محمود: م.س.، ص ٢٠٦

(٨) القبلي: م.س.، ص ١٦ ـ ١٧.

إن المصادر تجيب عن هذا التساؤل بكل وضوح. فثورة المهدي بن تومرت[1] وانتفاضات المدن الأندلسية[2] جعلت الروايات العربية تذكر بمرارة أن علياً بن يوسف بن تاشفين بعث إلى ولده تاشفين بالأندلس يطلب منه العودة فوراً للمغرب بجيوشه وعتاده وأمواله[3]، وهو ما يعني عملياً انكفاء المشروع الوحدوي وتقوقعه إن لم نقل بداية فشله في ظل التجربة الأولى.

وأيضاً ألا يمكن القول بأن حدث الغزوة الهلالية يفسر جانباً من هذا التعثر في التجربة المرابطية؟ الواقع أن دور بني هلال في مسار الوحدة المغاربية يبقى مشوشاً ومختلطاً. ويبدو أنه ذو وجه مزدوج. فلا سبيل لإنكار ما قام به هؤلاء من دور هدَّام حيث خربوا الطرق التجارية وأفسدوا الحقول وساهموا في إقامة إمارات قزمية متصارعة[4]. إلا أنه لا يمكن كذلك نفي الوجه الثاني من العمل الهلالي، وهو عمل ايجابي حسبما نعتقد، وفي صالح تمتين الوحدة المغاربية وتدعيمها، فقد اختلطوا بالأهالي، وساعدهم في ذلك الزواج وصلات القرابة التي نمت وترعرعت على مر الأيام[5]. وساعد على هذا الاختلاط التشابه بين حياة العرب الهلالية وبعض قبائل البربر خاصة تلك التي تحترف الرعي، فضلاً عن اتفاقهم في بعض الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وحفظ العهد[6]. كما أن اللغة العربية التي أدخلوها كانت عامل توحيد أضيف إلى العامل العرقي لتكوين وبناء الوحدة بين أقطار المغرب العربي[7]؛ يضاف إلى ذلك مشاركتهم في عملية توحيد المغرب مع الأندلس.

وأخيراً، ما هو موقع «وعي» المغاربة من هذا المشروع الوحدوي؟.

إن الحديث عن «وعي وحدوي» في هذه المرحلة الباكرة يُعدّ نوعاً من المجازفة، ولكننا نستطيع القول إنه كان وعياً وجدانياً نابعاً من موقف عاطفي مجرد. ففكرة الوحدة ظلت حاضرة في مشاعر المغاربة وممارساتهم، بل إن ثقافتهم حملت أكثر من دلالة، وهو ما يمكن إعطاء الدليل عليه من غير صعوبة. ويكفي الوقوف على إنتاجات المغاربة لنتأكد من ذلك. ولنأخذ على سبيل المثال النوازل الفقهية، فقد كان القاضي المشهور ابن رشد الجد[8] (ت ٥٢٠ هـ) يقيم في الأندلس، ورغم ذلك كان يُمطر بوابل من طلبات الافتاء آتيةً من القيروان وسبتة ومراكش وبجاية وغيرها من مدن المغرب الإسلامي. فالفرد العادي لم يكن يشعر بالغربة في محيط هذا المغرب الكبير، بل على العكس فإن

(١) ابن أبي زرع: م.س.، ص ١٧٣ ـ ١٧٤

(٢) انظر ترجمة عن بعض ثوار المدن الأندلسية عند ابن سعيد: م.س.، ج٢، ص ٥٧، ٦٠، ٦١. وعن ثورة المريدين التي كانت أعظم ثورة قامت في مدينة المرية واتعبت المرابطين انظر: LAGARDERE: «La Tariqua et la révolte des Muridun en 539/1114 en Al Andalus». In *R.O.H.M.*, n°35, 1983.

(٣) ابن الأحمر: م.س.، ص ٣١

(٤) حسن علي حسن: م.س.، ص ٣٠٨

(٥) حركات: م.س.، ص ٣٠٧

(٦) السامرائي: م.س.، ص ٤١٠.

(٧) حركات: م.س.، ص ٣٠٧

(٨) انظر في ترجمته: مخلوف: **شجرة النور الزكية**، م.س.، ص ١٢١ ـ ابن عبد الملك: **الذيل والتكملة**، م.س.، ص ١٢٧.

شعوره بهذا الانتماء جعله لا يميز بين فقيه أو قاض يعيش في مراكش أو المهدية أو قرطبة. ولعل هذا الشعور هو ما ترجمه فقيه متأخر[١] جمع هذه النوازل في كتاب سماه **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**.

وفي هذا العنوان أكبر دليل على هذا التواصل الاجتماعي والديني في وعي المغاربة. وكان يكفي أن تُغِير القوى النصراينة وغيرها على منطقة من هذا المغرب الكبير حتى تهب لصدها كافة قـوى «جماهير» المغرب الإسلامي.

لقد ظل هذا الشعور الوحدوي ناموس وإرادة الحياة الجماعية. ومن هذا الموقع، وعى سكان المغرب الإسلامي كيانهم الموحد، ولم يعترفوا بالحدود السياسية المصطنعة، فالمغرب العربي كان «بطاقة التعريف» لكل فرد يعيش في هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

ولا يخامرنا شك في أن هذا المستوى من الوعي «غير المعقلن» كان كذلك من جملة العوامل التي تمخض عنها تعثر المشروع الوحدوي المرابطي.

من حصاد كل ما سبق، يتضح أن التجربة الوحدوية المرابطية مثلت التجربة «الأم»، وأنها كانت تحمل عناصر المناعة والخلل في آن. فتجذّرها في الذات الشعبية، وانصهـارها في وعـاء المد الوحدوي الإسلامي، وتسلحها بمشروع إيديولوجية إصلاحية، وتدعيمها بقاعدة مـادية تجلت في سيطرة كلية على طرق التجارة بعيدة المدى، فضلاً عن إفلاس النظام السياسي القبلي ـ الأسروي، وحضور عامل قرابـة الدم، كـانت عناصر تُعطي الفكـرة الوحـدوية دينـاميتها وتمـدها بصفـات الاستمرارية والدوام. غير أن هذه العناصر كانت تحمل في ذاتها أخطاراً لا يخفيها النجاح المؤقت الذي حققته التجربة. فالأزمات البنيوية التي عرفتها الدولة المرابطية كقوة توحيدية، وتطرف السلطة الدينية، وتفريغ الإيـديولـوجية المـالكية من مضمـونها الـوحدوي... والإفـلاس على الصعيـدين الاقتصادي والسياسي، وعدم تكسير القشرة القبلية وتوليد طبقة اجتماعية منسجمة وقادرة على فرض سيادتها، فضلاً عن موقف الدول المجاورة التي لم تدرك عمق البعد الـوحدوي، ففضلت إشهـار «الحرب الباردة» رداً على زعامة المغرب الأقصى، ولم تستجب بالتالي للتطلعات الوحدوية. كل ذلك كان وراء تعثر التجربة الوحدوية، ناهيك عن حضور خطاب القوة والعنف كأسلوب وممارسة، ثم غياب عمل وحدوي ممنهج، وانتفاء «وعي» يقوم على إحساس واقعي لشعوب المنطقة. كما لا يمكن كذلك إنكار انشغال المرابطين برد الأطماع الصليبية، ومجابهة المتاعب الداخلية والمتغيرات والمستجدات الطارئة، وكل هذه عناصر ساهمت بشكل أو بآخر في عدم إنجاز الوحدة المغاربية بشكلها النهائي.

غير أن التجربة المرابطية رغم ثغراتها وتعثراتها، فإنها تُعدّ من أهم التجارب الوحدوية الرائدة في الغرب الإسلامي. بل إليها يُعزى الفضل في تعبيد الطريق للتجربة الموحدية التي استفادت من هذه التراكمات الأولية لتحقيق مطمحها في خلق وحدة المغرب العربي.

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى بفاس سنة ٩١٤ هـ. وقد نشر الكتاب نشراً حديثاً بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكـة المغربيـة وتمّ طبعه في بـيروت سنة ١٩٨١ في ١٢ جـزءاً وجزء خـاص بالفهارس.

فهرس الموضوعات

تاريخ الغرب الإسلامي

قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة

د. ابراهيم القادري بوتشيش

أستاذ محاضر بجامعة مولاي إسماعيل
كلية الآداب . مكناس - المغرب

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

لدار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان
ص.ب: ١١١٨١٣
تلفون: ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
ايلول (سبتمبر) ١٩٩٤